# بيروت حرية لا تشيخ

نزار قباني

بيروت .. حرية لا تشيخ ...

هذا موعد حب تأخر سبعة عشر عاماً . ولا أدري إذا كانت مواعيد الحب تصمد في وجه الزمن ، والأعاصير ، والانفجارات الكبرى .

فالرجال يتغيرون ، والنساء يتغيرن ، والحب يتغير .

ولكن الشاعر لا يعترف بشيخوخة الشعر .. ولا بشيخوخة الحب .. ولا بشيخوخة الحبيبة ...

إنه حاضرٌ دائماً على خريطة العشق . رغم أن كل الخرائط في العالم العربي أكلها العث .. فلم يبق فيها بحرٌ أزرق ، ولا عصفورٌ أخضر ، ولا قمرٌ برتقالي ، ولا عشقٌ ولا من يعشقون .

هكذا كتب الله علينا ، نحن الشعراء العرب . أن نخترع الجنة ، ونحن في أعماق جهنم ...

وأن نفتش عن الينابيع ، وليس في الأرض قطرة ماء .

وأن نبشر بالحب ، وليس من حولنا سوى شوك الكراهية .

وأن نتغزل بالنساء ، ونساؤنا ممنوعة من ممارسة أنوثتهن ، وموضوعات في الإقامة الجبرية .

وأن نتغنى بعيون الوطن ، وهم غرسوا الأسياخ في عينيه ، وتركوه أعمى .

* * *

تلك هي مهمتنا المستحيلة .

ومع هذا يحاول الشاعر أن يخترع أشجاراً ، وأقماراً ، وسنابل ، ونساءً ، وأطفالاً ، وحنطة ، وخبزاً ساخناً ، وعصافير تحلق في الفضاء ، وكتباً جميلة عن الحرية .

هل نحن نكذب عليكم ؟ ربما ...

ولكن الكذب ضروري ، إذا كانت الغاية منه ، تحريض الأشجار على الوقوف ، والشمس على الشروق ، والأرض على الدوران ، والنهد على التمرد ، والبرعم على التفتح ، والبحر على إعلان ثورته الزرقاء ، والنساء على إسقاط شهريار ، والشعوب على الخروج من ثقوبها ..

* * *

**نحن كذابون .. لا من أجل الكذب ، ولكن من أجلكم ..**

**من أجل أن نساعدكم على تجميل البشاعة ، وإجراء عملية جراحية لوجوهنا التي أحرقتها الهزائم .**

**من أجل أن تعيش الوردة ، وتموت الرصاصة ..**

**من أجل أن يطول عمر القبلة .. وينقصف عمر القنبلة ..**

**من أجل أن يصدح الحمام .. وتسكت أكاذيب وزارات الإعلام ..**

**من أجل أن تتكاثر ذرية المبدعين .. وتنقرض ذرية السياسيين .**

**من أجل أن ينتصر صوت القصيدة .. على صوت المسدس الكاتم للصوت .**

**من أجل أن ينتصر بياض الياسمين .. على مزابل النفايات الذرية .**

**وأخيراً .. من أجل أن تنتصر الكتب المقدسة .. على النصوص غير المقدسة للنظام العالمي الجديد ...**

* * *

**بعد سبعة عشر عاماً ، أعانق بيروت الجميلة .. أعانق فيها الصديقة ، والحبيبة ، والصبية التي ترفض أن تشيخ ..**

**ألا تزال بيروت صبية ؟ ربما تتساءلون ..**

**نعم .. نعم .. إنها لا تزال ست الصبايا ..**

**ذلك لأن الحرية هي الوصفة السحرية التي تمنع بيروت من أن تشيخ ..**

**وحدها المدن الحرة ، هي المدن التي لا تزحف إلى وجهها التجاعيد ...**

**وحدها المدن الحرة ، هي المدن التي لا تتبشع .. ولا تترهل .. ولا تستعمل الأصباغ والمساحيق ..**

* * *

**بعد سبعة عشر عاماً ..**

**أعانق بيروت كما أعانق فتاة في ثيابها المدرسية .. وشريط شعرها الأزرق ..**

**لا يزال وجهها مستديراً كالقمر ..**

**وضحكتها شفافة كقطعة كريستال ..**

**وعيناها تختزنان كل أساطير البحر الأبيض المتوسط ..**

* * *

**بعد سبعة عشر عاماً ..**

**أقابل قصائدي التي كتبتها في بيروت .**

**أقابل قطعة من عمري الجميل في حي ( مار إلياس ) ، وشارع المعرض ، وساحة رياض الصلح ، وبساتين الجامعة الأميركية ، ومقاهي شارع الحمراء ، ومكتبات رأس بيروت ، وبائعي مناقيش الزعتر على امتداد الكورنيش ، وقوارب الصيادين في ميناء عين المريسة ..**

**بعد سبعة عشر عاماً ..**

أشتهي كالأطفال منقوشة زعتر .. وعروسة لبنة من عند ( بديعة ) في شتورة .. وسمكة طازجة من عند الغلاييني .. وأتذكر بشجن سمفونية أجراس الكُبَّة في زحلة ..

بعد سبعة عشر عاماً ..

أقابل حريتي .. وأبكي ...

* * *

يا أحبائي :

أنا قادم إليكم من لندن ، متوكئاً على عصا أحزاني ..

يثيرني الوقوف على منبر ( أسمبلي هول ) في الجامعة الأميركية بعد فراق ربع قرن ...

يثيرني أن أسترجع نيراني من تحت الرماد .. وفروسيتي بعدما تعبت الخيول .. وعنترياتي النسائية بعدما اشتعل القلب شيباً ..

ورغم أن اللعبة خطيرة ، ولكنني سأجرب حظي ..

ربما أسقط من فوق حِبال الكلمات .. وقد تنكسر أضلاعي .. أو تنكسر كبريائي ..

ولكنني لا أشعر برغبة في التراجع ..

إن لعبة الشعر بالأساس هي مغامرة .. ورقص على حافة الهاوية ..

فلماذا لا أجرب حظي ؟ ...

* * *

إنني غير متمسك بحكاية فتى الشاشة الأول .. ولا أنا متمسك بفتوحات الإمبراطورية الرومانية ، أو البريطانية ، أو الجرمانية ..

فكل الإمبراطوريات إلى زوال ، باستثناء إمبراطورية شاعرنا العظيم أبي الطيب المتنبي .

لقد غنيت على هذا المنبر في الستينات ، فهل أستطيع بشعري أن أخترق حساسية جيل التسعينات ؟

قد تكون الحساسية الشعرية من القضايا النقدية المطروحة ، ولكنني لا أتصور أن الحساسية الشعرية العربية قد انقلبت على نفسها 180 درجة مئوية ، خلال ثلاثة عقود ، وأن أذن الإنسان العربي أصبحت في مؤخرته !! ...

إن الشعر العربي يتطور من داخل بنيته التاريخية ، واللغوية ، والاجتماعية ، ولكنه لا يتطور أبداً على طريقة الانقلابات العسكرية .. والبلاغ رقم 1 ...

* * *

وما دام هذا وقت الاعتراف ، فلأعترف أمامكم أن بيروت علمتني .. وثقفتني .. ودللتني .. وأطعمتني اللوز والسكر ..

ويردد بعض الشعراء إشاعة مفادها أنني وجدت على رمال الأوزاعي قمقم سليمان ، فلما فركت الخاتم ، طلع لي منه خمسون مجموعة شعرية ..

ومهما يكن من أمر الإشاعة ، فشكراً عظيماً لبيروت ، وشكراً لإمامنا وشيخنا الأوزاعي .. وشكراً لمارد الشعر على ما أعطاني ...

* * *

ولسوف أستمر في اعترافاتي كي أقول :

إن بيروت لم تنبش أوراقي .. ولم تكسر أصابعي .. ولم تراقب تلفوناتي .. ولم تتلصص عليَّ من ثقوب الأبواب ..

كانت تتعامل معي تعاملاً حضارياً ، فتصنع لي قهوتي الصباحية ، وتعطيني بريدي ، ثم تنسحب على أطراف أصابعها قائلة :

" عندما تحتاج إليَّ .. فأنا في الغرفة المجاورة .. " .

* * *

أيها الأحباء :

أنا مجنون بيروت ...

ولن يستطيع أحد أن يخطفها مني .. أو يكتب عنها أفضل مني .. أو يغازلها أحسن مني ...

هذا ليس كلاماً سرياً .. ولكنه كلامٌ تردده كل الأمواج التي تلعب على شاطئ فندق السان جورج ...

* * *

إن بيروت هي حادثٌ شعريٌ كبيرٌ في حياتي . فلقد أعطتني جرعة من الحرية عجزت أية مدينة في العالم أن تعطيني مثلها ...

ولقد سافرتُ كثيراً ، وتنقلتُ كثيراً في أسفاري الدبلوماسية حتى وصلتُ إلى جدار الصين العظيم ..

ولا أزال آكل حتى الآن من الزوّادة الثقافية التي زودتني بها بيروت قبل رحيلي ، وأجد فيها كل ما أحتاج إليه من فاكهة الفكر .. وخبز الحرية ..

* * *

صحيح أنني قرأت شعري في باريس ، ولندن ، ومونتريال ، ولوس أنجيليس ..

ولكنني في جميع هذه المدن ، كنت أشعر أنني أقرأ شعري فوق سفينة لا قعر لها ..

أما في بيروت .. فأشعر أنني في بيتي .. وفي سريري .. وأن الأرض تحتي توقفت عن الاهتزاز ..

**أشعر أنني انتقلت من سفينتي المثقوبة إلى بر الأمان ، ومن شواطئ بحر الشمال إلى شاطئ عين المريسة .. ومن حديقة هايد بارك .. إلى حديقة الصنائع ...**

**فشكراً لكم أيها الأحباء ، لأنكم كنتم دائماً عائلتي ، وقبيلتي ، وجيشي الثقافي ، وكتائبي الأمامية ..**

**ولا تؤاخذوني إذا تلعثمت ..**

**ففي حالة الحب الكبير ، يتلعثم القلب .. ويتلعثم اللسان .. وتتلعثم اللغة .**

**فاقبلوني كما أنا ..**

**لأن العودة إلى بيروت ، فرحة أكبر من مساحة قلبي ...**

**لندن/ بيروت**

**7 كانون الأول ( ديسمبر ) 1992**

*** المقدمة التي افتتح بها الشاعر أمسيته الشعرية في قاعة ( أسمبلي هول ) في الجامعة الأميركية في بيروت بتاريخ 7 كانون الأول (ديسمبر) 1992 .**